تعاطف

بقلم : فتحي هاشم

في ليلة قمرية من ليالى الصيف ، اتخذ الرفاق مجلسهم المألوف على شاطىء الترعة حيث اعتادوا قضاء السهرة تحت شجرة هناك . حين أقبلت عليهم ، كانت الشلة بتمامها ، وتزيد رجلا غريبا لم أكن قد رأيته من قبل .

أثار هذا الرجل اهتمامى للوهلة الأولى ... كان ضامرا ضمورا غريبا ، كأنه توقف عن النمو فى سن العاشرة ، ضخم الرأس ، بارز عظام الوجنتين ، دميما ... ليس فيه ما يطيب للرائى سوى عينيه ، فهما مستديرتان ، بهيتان ، يترقرق فيها بريق ذهبى أخاذ ، توحيان بأن وراءهما عالما فسيحا بعيد الاغوار . على أن كلماته ـ وليس شكله ـ هى التى أبقت صورته فى ذاكرتى .

شرع يتكلم بعد أن جلست ، ويبدو أنه كان يواصل حديثا قطعه عليه مجيئى . قال موجها حديثه الى مختار الجالس جواره :

ـ أنت ترى هذا ... ولكنى لا أوافقك ...

وسكت هنيهة ، وأخذ يفرك كفيه ثم استطرد :

ـ الألم ؟!.. الألم فخر الانسان ...

هو تاج الشوك النبيل الذى يتوج هامات البشر ... وهو أيضا الينبوع لكل شعور رفيع ، انه ينبوع الحب ، والمروءة ، والحنان ، والسرور ... انه ينبوع السرور أيضا ...

ضحك مختار ضحكة خفيفة وقال معلقا :

ـ آه . هذه النقطة الأخيرة لا أفهمها ... ولكن لا تنس أن الحيوانات تتألم ...

ولم تكن تبدو عليه الرغبة الجادة فى النقاش ، وان ما قاله لم يكن أكثر من ملاحظة ومضت فى خياله فنطقها دون أن يهتم بسماع رد عليها ، ولعله قال ذلك لمجرد السخرية من صاحبه . بيد أن هذا اندفع متحمسا :

ـ أجل هذا صحيح ... ولكنها فى هذه الحالة تكون قد اقتربت خطوة من الانسان .. لقد رأيت بعينى رأسى تعبيرا بشريا عن الألم فى عيون بعض الحيوانات .. أتفهم ؟... تعبير بشرى ... رأيت ذلك مرة فى عينى جاموسة ؟!

لفظ الكلمة الاخيرة بصوت خافت ، كأنه خاف أن يخدش أسماعنا . على أنه

ما كاد يلفظها حتى دهمته زوبعة من الضحك والتعليقات . وانتظر حتى صمتوا فعاد يقول رافعا صوته عن ذى قبل :

ـ كانت متعبة ، بارزة العظام ، وبها جرح مستقيم فى ظهرها ... ويبدو انها كانت حديثة الولادة ـ فضرعها المنتفخ يشير الى ذلك ـ ولعلهم ساقوا وليدها الى المذبح فهذا يحدث كثيرا .. وكانت تسير بين رجلين ، الأول يشدها، والثانى يسوقها بعصا ويضربها ... ولكنها توقفت وأبت أن تسير رغم الضرب والشد والدفع وصيحات الغضب التى راح يطلقها الرجلان ... وحين اشتد عليها النكير ، أخذت تحرك عنقها يمنة ويسرة وهى تزفر ، وقد ترقرق فى عينيها تعبير حقيقى ، تعبير بشرى ... كان مزيجا من الألم واليأس والحزن والملل ... تصور كل هذا يبدو فى عينى جاموسة فى لحظة ألم !!

عاد الرجال الى الضحك والصخب مرة أخرى ، وتخلى بعضهم عن واجب المجاملة للضيف فهجموا عليه يقرصونه بسخرياتهم .

قطب الرجل جبينه وأخذ ينقل عينيه فى الوجوه وقد ارتسم فيهما تعبير غامض ... وكنت أحسب أنه لن يعود الى الكلام بعدما حدث ولكنى رأيته ينظر الى وعلى فمه ابتسامة هزيلة ثم شرع يخاطبنى . قال دون أن تختلج نبرة صوته :

ـ انهم لا يفهمون !!.. ان الناس لا يفهمون ـ وذلك ما يثير الخوف حقا ـ ان الأشياء النبيلة فى متناول أيديهم جميعا ، ولكنهم لا يتناولونها ... مثلهم كمثل الهمجى الذى يعيش فى مدخل منجم من مناجم الذهب ، ولا يفعل أكثر من أن يبول فيه ويتخذه حظيرة لمواشيه !!

وقطع هذا الحوار نداء حاد جاء من عرض الطريق : « طحال عال » . حينئذ دب النشاط فى الحاضرين وتحسس البعض بطونهم، وقام من بينهم من ينادى البائع ، وقد ألهاهم ذلك عن مناوشة الغريب والرد عليه .

كدس البائع الخبز ، والطحال ، وشرائح الطماطم ،وقراطيس الملح ، على مائدة صغيرة فى الوسط ، واذ تم اعداد كل شىء أعلن أحدهم بدء العشاء قائلا « تفضلوا ... »

وكان مثل هذا العشاء يجتذب عادة الكلاب الضالة من حولنا ، فما هى الا لحظة حتى ظهرت طلائعهم ... جاء أولا كلب ضخم، أسود ، يتيه بقوته ، وتقدم من الآكلين بجسارة وثقة . وبغتة قذفه أحدنا بحجر أصاب جنبه . زمجر الكلب وكشر لنا عن أنيابه ، ولكن حجرا آخر جعله يولى الأدبار ... جرى مسافة ثم وقف واستدار الينا يرمقنا فى صمت ، كمخلوق يريد أن يفصح عن شىء ... وضحك الضيف قائلا :

ـ انه يشتمنا ...

وقوبلت هذه الملاحظة بالفكاهة والرضا .

لم تكف الكلاب عن ملاحقتنا ، ولم نكف نحن عن زجرها ورجمها . وكان من عادة الكلاب القوية أن تزمجر وتكشر عن أنيابها ، اذا أصابتها رمية حجر ، أما الكلاب الضعيفة ، فكانت تصرخ

وتصيء ، وتجرى مذعورة وذيلها منكسر بين رجليها الخلفيتين .

ويبدو أن الكلاب يئست منا فى النهاية فكان أن اختفت، وان ظل بعضها رابضا على مبعدة ، يراوده الأمل دون أن يجسر على الاقتراب ...

وظللتنا لحظة صمت ، لم يكن يسمع خلالها سوى المضغ ، والتمطق ، والبلع.

ورأيت صديقنا الغريب يلتفت فجأة مناديا « تعال » وأشار الى شيء لم أتبينه فى أول الأمر ... وحين دققت النظر رأيت كلبا ضامرا بارز العظام ...

اقترب الكلب محاذرا وهو يظلع ويجر نصفه الخلفى ـ كانت احدى ساقيه الخلفيتين مكسورة ـ بينما راح صاحبنا يستحثه ويشجعه قائلا « تعال لا تخف

... تعال ... » . وتنكأ الكلب عند ورقة قذرة بها آثار طعام ، وراح يلعقها بشغف ثم التهمها ... وضحك الضيف ملاحظا :

ـ الفقر أيضا يصيب الكلاب ...

ثم عاد الى الكلب ، يناديه ويقربه ، ويلقى اليه بقطع الخبز . وأخذ الكلب يقترب حتى صار عند قدميه . وعندما هم أحدهم بطرده نهاه عن ذلك ، فكان أن تركوه وقد أثار هذا العمل شيئا من النفور فى نفوسهم ، على أن الغريب لم يبال بأحد ، وظل يوالى الكلب بالفتات وهو يضحك راضيا ، وانتهز فرصة مرور بائع الطحال مرة أخرى ، فاشترى بقرش وقدمه له قطعة قطعة ، وفى النهاية تمدد الكلب تحت الكرسى ونام مطمئنا .

وظل الرجل طوال السهرة يوليه عنايته ، فهو لا يفتأ يتلمسه بنظراته بين آن وآخر ، ويسأله ملاطفا :

ـ مبسوط ..؟

حينئذ يهز الكلب ذيله ويصيء معربا عن عرفانه ورضاه .

وقد أثار هذا المسلك بعض البسمات والغمزات ، وتفتحت شهية الجميع للسخرية ... همس الذى بجوارى :

ـ انهما متشابهان تماما ، كانهما شقيقان ...

وقال آخر :

ـ الطيور على أشكالها تقع ..

ولكن مختار خاطب الضيف فى سخرية سافرة ، اذ كان يبدو أنهما صديقان ، وليس بينهما حرج . قال وهو يربت كتفه :

ـ بدأت الآن أومن بتناسخ الارواح ... لو كنت أعرف أنك ميت ، وقابلت هذا الحيوان فى الطريق ، لقلت فى نفسى ، ان روحك تقمصت هذا الكلب الناشف ...

ولم يبد على الرجل الغضب لسماع هذا الكلام ، بل شاركنا الضحك ... ثم انحنى ونظر الى الكلب قائلا :

ـ أتسمع ما يقولون ؟.. لاتهتم لهذا النباح ...

ثم رفع رأسه وقد تألقت عيناه بالغبطة وأشرقت على فمه ابتسامة صافية ، غلب صفاؤها على دمامة وجهه وقال :

ـ سيظلون دائما على أعتاب المنجم دون أن يخطر ببالهم أن يتقدموا خطوة الى الداخل ...

وشغلتنا بعد ذلك أحاديث متباينة حتى شارفت السهرة نهايتها ، وقام الضيف لينصرف .

وحين خطا أولى خطواته لاحظت أنه أعرج ... واذ رأنى أحدق فى رجله المكسورة ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، ثم حيا ومضى يظلع ، والكلب يظلع من ورائه .